شعرية الخطابة في ديوان أوراق الزيتون لمحمود درويش

The Poetics of Rhetoric in Mahmoud Darwish's Olive Leaves

حامد جواد مهدي محمد

Hamid Jawad Mahdi Al-mansoori

www.h.m.1966@gmail.com

وزارة التربية / المديرية العامة للتربية في محافظة بابل

ملخص

شغل مصطلح الشعرية والخطاب موقعاً متميزاً في الدراسات الأدبية والنقدية عند الدارسين المحدثين، وهذا نابع من محاولة الباحثين فك شفرات النص الأدبي الذي طالما رأوه لغزاً محيراً يصعب على الباحث الإحاطة بجميع جنباته؛ فكانت محاولاتهم لاستبطان الطاقات الكامنة فيه على النحو الأمثل الذي يكون أكثر إقناعاً، مع الإقرار بأن لكل نص أدبي خصوصيته الفنية واستقلاليته الذاتية وأدواته الخاصة التي تساهم في بنائه، ولا شك أن النص الشعري عند محمود درويش له وضعه الخاص مثل غيره من النصوص الشعرية للشعراء الآخرين، ولا سيما نصوصه الشعرية التي قالها في مدة مبكرة من حياته، ويأتي ديوان أوراق الزيتون ممثلاً للحالة الثورية التي عاشها الشاعر في ريعان شبابه فكان من الطبيعي أن يأتي خطابه الشعري خطاباً ثورياً منسجماً مع شخصيته ووضعه وظروفه من النواحي كافة، ومن هذا المنطلق كان الاختيار لهذا البحث لدراسة شعرية الخطابة في ديوان أوراق الزيتون، وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن تكون على مبحثين؛ إذ جاء المبحث الأول للحديث عن مصطلحات البحث الرئيسية وهما مصطلحا الشعرية والخطابة، والمبحث الثاني للحديث عن تجليات الخطاب في ديوان أوراق الزيتون عبر الحديث عن ذلك الخطاب من ناحيتي المضمون والأسلوب.

الكلمات المفتاحية: ((الشعرية، الخطابية، اللغة، الاصطلاح، ديوان أوراق الزيتون))

Abstract

The terms poetics and discourse have occupied a distinguished position in literary and critical studies among modern scholars. This stems from researchers' attempts to decipher the literary text، which they have always seen as a perplexing mystery that is difficult for researchers to grasp in all its aspects. Their attempts were to internalize the latent energies in it in the best possible way that would be more convincing، while acknowledging that each literary text has its own artistic specificity، its own independence، and its own tools that contribute to its construction. There is no doubt that Mahmoud Darwish's poetic text has its own status like other poetic texts by other poets، especially his poetic texts that he said in an early period of his life. The Olive Leaves collection represents the revolutionary state that the poet experienced in the prime of his youth. It was natural for his poetic discourse to be a revolutionary discourse that was

consistent with his personality، situation، and circumstances in all aspects. From this standpoint، this research was chosen to study the poetics of rhetoric in the Olive Leaves collection. The nature of the study required that it be divided into two sections. The first section discussed the main research terms، which are the terms poetics and rhetoric. The second section discussed the manifestations of rhetoric in the Olive Leaves collection by discussing that rhetoric from the perspectives of content and style.

Keywords: ((poetics، rhetoric، language، terminology، Olive Leaves collection)).

مقدمة

نال مصطلحا «الشعرية» و«الخطاب» مكانة بارزة في الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة، نظراً لجهود الباحثين في فك رموز النصوص الأدبية التي غالباً ما تُعدّ ألغازاً يصعب الإحاطة بجميع أبعادها، وقد سعى هؤلاء الباحثون إلى الكشف عن الطاقات الكامنة في النصوص بأفضل صورة ممكنة، مع الاعتراف بأن لكل نص أدبي خصوصية فنية واستقلالية ذاتية وأدوات تميزه في بنائه، ولا شك أن الشعر لدى محمود درويش يتمتع بمكانة خاصة، مثل غيره من الشعراء، لا سيما نصوصه الشعرية التي كتبها في بداية مسيرته.

ويعد ديوان أوراق الزيتون نموذجاً معبراً عن الحالة الثورية التي عاشها درويش في شبابه؛ إذ انعكس هذا في خطابه الشعري الذي اتسم بالثورية، متسقاً مع شخصيته وظروفه المختلفة، من هذا المنطلق، تم اختيار هذا البحث لدراسة شعرية الخطاب في ديوان أوراق الزيتون، وجاءت الدراسة على مبحثين: المبحث الأول المفاهيم الأساسية، وهما مصطلحا الشعرية والخطاب، فيما ركّز الثاني على تجليات الخطاب في الديوان، مستعرضاً مضمونه وأسلوبه.

المبحث الأول
الشعرية والخطابة في اللغة والاصطلاح

- أولاً: الشعرية في اللغة والاصطلاح:

يلحظ ان كلمة الشعرية ترجع إلى الجذر الثلاثي: (شعر)، وتدل كلمة الشعور في المعاجم العربية على العلم بالشيء، فيقال: شعر به أي علم، ومنه قول العرب: ليت شعري، أي ليت علمي، أو ليتني علمت، ويقال: أشعره الأمر وأشعره به بمعنى أعلمه إياه، ومنه قوله سبحانه وتعالى:(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ

لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ)[سورة الأنعام ١٠٩]، أي: وما يدريكم، ويقال: استشعر فلان الخوف، إذا أضمره(١).

فكلمة الشعر من الناحية اللغوية تدل على العلم والإدراك، وذكر اللغويون أنه من هذا المعنى أخذ اسم الشاعر. فقد ذُكر أنه إنما سمي الشاعر شاعراً لفطنته(٢)، فالشين والعين والراء أصلان، يدل أحدهما على ثبات، ويدل الآخر على عِلْم وعَلَم، وأصله من الشعرة كالدربة والفطنة، حتى سمي الشاعر بهذا الاسم لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره(٣).

ويبدو للباحث أن المعاجم اللغوية تربط دائماً من حيث البنية الثلاثية للكلمة المؤلفة بين الشين والعين والراء بين الشعر والشعور الذي هو العلم أو الإدراك، ولذلك فإننا إذا نظرنا في الشعرية من حيث كونها مصطلحاً نقدياً؛ فإننا سنلاحظ أن القدماء ربطوا بين الشعرية والشعر دون غيره من الأجناس الأدبية، ثم تطور لاحقاً ليشملها كلها من جهة وليكون مثار جدل واسع في الدراسات الأدبية الغربية والعربية حديثها وقديمها، حتى يصبح من الصعب على الباحث أن يجد مفهوماً دقيقاً لهذا المصطلح، «إن البحث في الشعرية ما زال في المقام الأول بحثاً عن إطار مفاهيمي يظل بعيد المنال، وعلى الرغم من النظريات العديدة التي طرحت بشأن الشعرية، فإن من الأفضل من الناحية الجمالية أن ننظر إلى الشعرية باعتبارها مفهوماً صامتاً من أجل استكشاف منطقة جديدة وإدخال مفهوم جديد لا يحده أي حدود مصطنعة من شأنها أن تعوق حيويته»(٤).

ومن هنا، فإنه إذا كانت الشعرية إحدى المرتكزات النقدية الساعية إلى الكشف عن مكنونات النص الأدبي والتنقيب عن الجماليات الفنية فيه، فهي: «مراقبة جمالية وصفية لنظم الخطاب الأدبي وبناه اللغوية»(٥)؛ فإنها في الوقت ذاته مصطلح يشوب مفهومه الكثير من الغموض والتجريد وصعوبة التحديد، ليكون مفهومه مرتبطاً بالمسعى الذي تصبو إليه، وهذا ما بيّنه تودوروف بالقول: «لقد حلت الشعرية الصراع بين التفسير والإجماع العلمي في مجال دراسات الأدب. وعلى النقيض من تفسير المشاريع النوعية، فإنها لا تحاول تسمية معنى المشروع، بل تحاول فهم المبادئ العامة التي تحكم إنشاء كل مشروع. ومع ذلك، وعلى

(١) ينظر: لسان العرب، مادة شعر، ٤/ ٤٠٩.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٤/ ٤١٠.
(٣) ينظر: مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩، ٣/ ١٩٥.
(٤) مفاهيم الشعرية، حسن ناظم، المركز الثقافي العربي، بيروت. ط١، ١٩٩٤، ص١٠.
(٥) اتجاهات الشعرية الحديثة الأصول والمقولات، يوسف إسكندر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨، ص٥٣

النقيض من هذه المجالات، التي هي في المقام الأول علم الاجتماع وعلم النفس، فإنها تركز على هذه المبادئ داخل الأدب نفسه. وبالتالي فإن الشعرية هي طريقة أدبية باطنية ومجردة في نفس الوقت»[١].

وإذا تتبعنا مفهوم الشعرية عند النقاد العرب القدماء، فإننا سنجد أن هذا المفهوم كانت له مرتكزاته المنهجية عندهم وإن لم يكن أخذ شكل المصطلح النقدي المعروف اليوم، حتى نجد أن القدماء ربما عبروا عن الشعرية بمصطلح الصناعة عند وصفهم للشعر بأنه صناعة وثقافة يثقفه اللسان[٢]، ومنهم من ذهب ألى أبعد من ذلك حتى أعطى توصيفاً للشعرية بالقول: «التوسع بالعبارة بتكثير الألفاظ بعضها ببعض وترتيبها وتحسينها، فتظهر حين ذلك الخطبية (أو الخطابية) أولاً ثم الشعرية قليلاً»[٣]، في إشارة إلى احتياج الشعر إلى الكثير من الدربة والارتياض في عالمه حتى الوصول إلى درجة الكمال الشعري، التي هي الشعرية.

كما نجد الربط عند القدماء بين الشعرية من جهة والنظم والمحاكاة من جهة ثانية، فقد ذكر عبد القاهر الجرجاني أنه « لا يوجد تنظيم أو ترتيب في الكلمات، مما يجعل بعض الكلمات مرتبطة ببعضها البعض، ومبنية على بعضها البعض، وينسب ذلك إلى كلمة واحدة»[٤]، وفي هذا الكلام ما ينبئ بالعلاقة القائمة بين النظم والشعرية، فالنظم « إنه الأساس لفهم شعرية الكتابة أو التأليف. فالنظام هو سر الشعرية، والاستعارات هي سر النظام «[٥]، ليكون النص القائم على التصميم الجمالي وحسن الانسجام والاتساق الناجمة عن التآلف والتعالق بين مختلف الوحدات الدلالية فيه نصاً جديراً بإطلاق سمة الشاعرية والشعرية عليه.

ويحصر بعض الغربيين الشعرية في بداياتها بالشعر دون غيره من العلوم والفنون، فالشعرية «علم موضوعه الشعر»[٦]، إلا أن هذا المفهوم قد تطور واتسع ليشمل فنوناً أخرى غيره ليصبح مصطلح الشعرية مصطلحاً يطلق «على كل موضوع يعالج بطريقة فنية راقية ويمكن أن يثير هذا اللون من المشاعر، ثم على الأشياء الطبيعية، كتب فاليري: نحن نقول عن مشهد طبيعي إنه شعري، ونقول ذلك أيضاً عند بعض مواقف الحياة»[٧]، لتكون الشعرية بذلك موقفاً يشمل كل المناحي والمواقف والظروف والفنون.

(١) الشعرية، تزفيتان تودوروف، تر: رجاء بن سلامة وشكري مبخوت، دار توبقال، المغرب، ط ١، ١٩٩٧، ص٢٣.
(٢) ينظر: المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، مكتبة التراث القاهرة، ط٣، دت، ١/ ١٧١.
(٣) مفاهيم الشعرية، ص١٢.
(٤) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٤، ص٨١.
(٥) الشعرية العربية، أدونيس، دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٨٩، ص٤٤.
(٦) النظرية الشعرية، جون كوهين، تر: أحمد درويش، دار غريب، القاهرة، ط١، ١٩٩٦، ص٢٩.
(٧) النظرية الشعرية، ص٢٩.

أما في المجال الأدبي على وجه التحديد، فإن الشعرية ترتبط به سواء في النظم أو النثر، وهي تهتم « إن الأدب في هياكله المجردة لا يعمل بمفرده، بل يعتمد على مجالات علمية أخرى، ويتقاطع معها في مجال الكلام، وهذا مستمد من نظرية فاليريان في الشعر »[١]، لتكون مجالات الشعرية بالتالي محددة في «تأسيس نظرية ضمنية للأدب، تحليل أساليب النصوص، استنباط الشفرات المعيارية التي ينطلق منها العمل الأدبي»[٢].

وقد كان لرومان جاكبسون رؤيته المتميزة للشعرية وطريقة دراستها إذ إننا نجد أن الطابع العلمي بات هو المسيطر على دراسته للشعرية عن طريق اعتماده على علم اللسانيات من جهة، واستعانته بعلوم المنطق، ومن خلال استعانته بالمنطق الحديث نراه يقسم اللغة إلى قسمين: « إن مفردات الموضوع، وهي الطريقة المعتادة التي نناقش بها أحداث الحياة وأمورها، تسمى أيضاً ما وراء اللغة، وهي لغة الموضوع عندما يدرس، وهذا ما يسمى بالشعرية »[٣]، وهو ما يجعل الحكم على الشعرية «في مفترق طرق بين اللسانيات والجمالية»[٤].

وإذا كان الانزياح من مقومات الشعرية عند بعض الباحثين، فإن مفهوم الفجوة بما تتركه من مسافة توتر مرتبطة بمفهوم أشمل للشعرية، وهذا المفهوم «يغطي التجربة الإنسانية بكل أبعادها، ولهذا فالانزياح هو أحد وظائف الفجوة: مسافة التوتر»[٥]، وإذا كانت الشعرية قائمة على مفهومي الانزياح والفجوة، أو على الفجوة باعتبار الانزياح أحد مكوناتها. فإن الشعرية لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال تآلف كل العناصر المكونة لبنية النص من وزن وقافية وصورة ورؤيا وانفعال وموقف فكري وعقائدي وما سوى ذلك، وانسجامها وتعالقها ضمن البنية الكلية للنص[٦]، تتميز الشعرية بطبيعتها العلائقية، أي أنها تشبع النص بشبكة من المكونات المترابطة التي تزداد شعبيتها كلما وردت في سياقات مختلفة دون أن تكون شعرية، ولكن عندما ننظر إليها ككل فإنها تصبح مسعى إبداعيا للشاعر ودلالة على وجوده[٧].

إن الشعرية بحسب هذا المفهوم تربط بين التنظير والتطبيق، وتقوم على مبدأ الانزياح الذي هو أول

(١) شعرية تودوروف، عثماني ميلود، منشورات عيون المقالات، الدار البيضاء، دط، دت، ص١٦.
(٢) الخطيئة والتكفير، عبد الله الغذامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤ ، ١٩٩٨، ص٢٣.
(٣) قضايا الشعرية، رومان جاكبسون، تر: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال، ط١، ١٩٨٨، ص١٦٠.
(٤) الشعرية الغربية الحديثة وإشكالية الموضوع، فتحي خليفي، الدار التونسية للكتاب، تونس، ٢٠١٢، ص٩٠.
(٥) في الشعرية، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، دط، دت، ص١٣٠.
(٦) ينظر: المصطلح النقدي، عبد السلام المسدي، مؤسسات عبد الكريم عبد الله للنشر، تونس، ط١، ١٩٩٤ ، ص٨٧.
(٧) المصطلح النقدي، ص١٤.

مكونات الفجوة أو التوتر للتعبير عن الشعرية، حيث إن «الطاقة التعبيرية في اللغة الشعرية تبرز سيطرة الشكل على المادة وبذلك وعن طريق المجاورة يتحقق التزاوج بين الصوت والمعنى كما يتم اختزال الترابط الآلي قصد خلق التأليفات الجديدة»[١]، إلى جانب ضورة تكامل المستويات كلها مع بعضها وتحقيقها للانسجام والتماسك النصي، ليكون «إن استخدام الكلمات في مواقفها اللغوية الحالية لا يؤدي إلى إنتاج الشعر، بل على العكس من ذلك، فإنه ينتجه من خلال أخذ الكلمات من معناها التقليدي ووضعها في سياق جديد»[٢]، وهو ما يسمى بالفجوة أو مسافة التوتر.

أما معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة؛ فقد ورد فيه مصطلح الشاعرية بدلاً من الشعرية، الشعر هو مسعى بحثي يحاول اكتشاف العنصر الفردي الذي ينتج فردية الحدث الأدبي، أي الطريقة التي يحدد بها ميخونيك الأدب. وبالنسبة لجيه كوهين، فإن تعريف الشعر كمجال دراسة يتضمن الشعر كافٍ، ويعتبر الشعر نظرية عامة للفنون الأدبية.[٣]

ويبدو مما سبق أنه من الصعوبة بمكان وضع تحديد دقيق لمصطلح الشعرية، مع اختلاف النقاد العرب والغربيين في تحديد مفهومها مع كونه على صلة وثيقة بالقوانين التي تحكم عملية الإبداع.

- ثانياً: الخطابة في اللغة والاصطلاح:

إن لفظ الخطاب من الألفاظ الثرية بدلالتها لتعدد اشتقاقات هذه الكلمة؛ فالخطب الشأن والأمر الصغير أو العظيم، وقيل هو سبب الأمر، وقولنا: ما خطبك يعني ما أمرك وشأمك، والخطب كذلك الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، وفصل الخطاب الحكم بالبينة والفصل بين الحق والباطل، ويقال خطب المرأة، والخطّاب المتصرف في الخطبة[٤].

أما من حيث الاصطلاح، فمن التعريفات التي وردت لمصطلح الخطاب قول بينيفست العالم اللغوي الفرنسي: « كل بيان يتضمن متحدثًا ومستمعًا، والمستمع يهدف إلى التأثير على الأول بطريقة ما»[٥].

إن هذا التعريف لمفهوم الخطاب يتيح لنا اعتبار كل أنواع الكلام خطاباً، وما دام مفهوم الخطاب بهذا القدر من الاتساع والشمول لجميع أنواع الكلام فلا بد إذن من نسبة الخطاب إلى حقل ما من حقول

(١) بنية اللغة الشعرية في النقد اللغوي، بونوالة صحراوي، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٤، ص٣٦ .
(٢) في الشعرية، ص٣٨.
(٣) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش، المكتبة الجامعية، الدار البيضاء، ١٩٨٤، ص٧٤.
(٤) القاموس المحيط، الفيروزابادي، محمد بن يعقوب، دار احياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١٢٩ .
(٥) تحليل الخطاب الأدبي دراسة تطبيقية، أبراهيم صحراوي، دار الآفاق، دت، ص١٠ .

الدراسة، أما هاريس فقد سعى إلى تحليل الخطاب بالتصورات نفسها والأدوات التي نقوم بها بتحليل الجملة، وقد عرف الخطاب أنه الملفوظ الطويل أو المتتالية من الجمل المتعلقة التي من الممكن ان تعاين بنية لسلسلة من عناصر عن طريقها باستعمال المنهجية التوزيعية وبشكل يبقينا في المجال اللساني المحض(١).

وانطلاقاً من هنا فإن التعامل مع الخطاب على أنه فعل النطق أو فاعلية تقال وتصاغ في نظام ما يريد المتحدث قوله من حيث هو كتلة نطقية فقد حدده موشلر على أنه الحوار وكانت تحليلاته توحي بتأثره بمدرسة بيرفكام التي حصرت الخطاب بالحوار فأكدوا على التعامل مع الخطاب باعتباره المونولوج شفوياً أم كتابياً(٢).

لقد تداول النقاد العرب مصطلح الخطاب ورأوا فيه تلك اللغة الفنية المستعملة في التعبير الأدبي والمواجهة بالكلام، فكان مفهومه عندهم أنه: كلام أو مقالة وهو كيان أنتجته مجموعة من العلاقات المعينة التي حدث بها التئام لأجزائه ونتج عن هذا تيار عرف بالملفوظ الأدبي لكونه الجهاز الخاص من القيم طالما أنه ضمن المحيط الألسني، وهو الذي أدى إلى رؤية الأثر الأدبي كبنية ألسنية متجاوزة مع السياق المضموني تجاوزاً خاصاً(٣)، ومن هنا فقد رأى الدكتور جابر عصفور أن الخطاب هو الطريقة التي تشكل بها الجمل نظاماً متتابعاً تسهم به في نسق كلي متغير ومتحد الخواص أو على نحو يمكن معه أن تتآلف الجمل في خطاب بعينه لتشكل خطاباً أوسع ينطوي على أكثر من نص مفرد».(٤)

وما يعني البحث هو الخطاب الأدبي الذي يستدعي فصلاً بينه بين انواع أخرى من الخطابات التي تكون غير أدبية، ولكل نوع من الخطابين، أي الأدبي وغير الأدبي مقاييس تميزه، والتعرف في الخطاب الأدبي على هذه المقاييس يعني استخلاصاً لأدبيته وتبنيها، بمعنى الاستخلاص لجملة من الشروط والخصائص والمقاييس التي تجعل من خطاب معين خطاباً أدبياً(٥).

إن الخطاب الأدبي هو الصياغة المقصورة لذاتها مع الإشارة إلى أن البلاغة الأدبية متميزة عن اللغة التي تكون في أي خطاب عادي بفارق أساسي فإذا كان الكلام العادي ناشئاً عن عدد من الانعكاسات المكتسبة عن طريق الملكة والمران فالخطاب الأدبي يصوغ اللغة عن إدراك ووعي، فاللغة في الخطاب الأدبي لا ترى

(١) تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٧، ص١٧.
(٢) تحليل الخطاب الروائي، ص٢.
(٣) الأسلوب والأسلوبية، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، ط٢، ١٩٨٢، ص١١٠.
(٤) عصر البنيوية من ليفي ستراوس إلى فوكو، جابر عصفور دار الآفاق العربية، بغداد، ١٩٨٥، ص٢٦٩.
(٥) تحليل الخطاب الأدبي، ص١٥.

كمجرد قناة لعبور الدلالة، وإنما تكون اللغة فيه ممثلة لغاية نقف عندها لذاتها، وإذا كان كذلك الخطاب العادي ممتازاً بالشفافية التي تسمح لنا برؤية المعنى من خلاله مع أننا لا نراه بشكل جيد في ذات الخطاب العادي فالخطاب الأدبي بعكسه لا يمتاز بهذه الشفافية بل هو ثخين ويستوقفنا هو نفسه حتى نتمكن من اختراقه، والخطاب العادي يعد منفذاً بلورياً، لا يكون حاجزاً لأشعة البصر، في حين أن الخطاب الأدبي يعد حاجزاً بلورياً من الصور والنقوش والألوان تقوم بصد أشعة البصر وتمنعه من اختراقه[1]، فالخطاب نسيج كلامي وحواري واللغة هي الأداة والجوهر للقيام بتبليغ الرسالة، وتبدو هذه المقارنة مقارنة واضحة بين الخطاب العادي والخطاب الأدبي وهي السبيل لمعرفة الأشياء الأساسية التي تسهم في بناء الخطاب الأدبي بطرق أكثر حداثية وتقنية مما يساهم بالإمساك بالإشعاعات المضيئة له، وتحقق ما أدبية الأدب وهذه الأخيرة هي الخصوصية للخطاب الأدبي ومن الممكن أن تعبر هدفاً يسعى البحث إلى تحقيقه عن طريق الخطاب الواصف أو مسلمة تكون معينة على التحديد للموضوع المعرفي سلفاً[2].

ولا بد من الإشارة إلى أن الخطاب قد عرف العديد من التحولات التي صاغتها الانجازات الفردية التي كانت ناتجة عن طبيعة التغيرات الثقافية المتعددة، وأن اختلاف شكل التعاطي من منجز إلى منجز غيره يعود لمعطيات ولمقتضيات ولاستجابات للدوافع الجديدة التي تتطلبه وتستدعيه من أجل أنه مفهوم ليحل محال العديد من الاستعمالات ويقوم باستيعاب مفاهيم غيره فيكسبها الدلالات الجديدة التي تكون مهيأة لها في ظل السياقات التي تتولد فيها المفاهيم الجديدة.

المبحث الثاني
تجليات الخطابة في ديوان أوراق الزيتون

- أولاً: المضمون الثوري:

ينماز ديوان أوراق الزيتون للشاعر محمود درويش بطغيان حماسة الشباب على مفرداته وفوران العاطفة على مضمونه، فهو يخاطب فيه وطنه المسلوب والإنسان الذي حرم من حريته، فيتجه في خطابه نحو التأكيد على عمق الانتماء والتشبث بتراب الأرض، فجسد في ديوانه حاجة الإنسان إلى الجمال والنبل والحياة، الفنانون يوفرون للإنسان ملاذاً نقياً سامياً يستطيع من خلاله الهروب من الهموم، كما يريدون إقامة علاقة مع الآخرين، ويحتاجون أيضاً إلى مشاعر عاطفية وتطهير نفسي، فضلاً عن البحث عن مشاعر جديدة

(١) الأسلوبية والأسلوب، ص١١٢.
(٢) قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، رشيد ابن مالك، دار الحكمة، فيفري، ٢٠٠٠، ص٩٧.

تسمح لهم بفتح أبواب القلب. وفي نهاية المطاف، يرغب الفنانون في الحصول على النصيحة والتوجيه، فضلاً عن حل القضايا التي لديهم والأزمات التي يواجهونها»[١].

ومن هنا فقد كان خطاب محمود درويش في أوراق الزيتون متجهاً نحو الإنسان، لكنه خطاب غاضب ملؤه الثورة، فكانت مقاومته عن طريق خطابه الشعري المتمثل بشعرية الوجدان الناري وجمالياته، وهو ما افتتح به ديوانه عندما قال:[٢]

الزّنبقاتُ السّودُ في قلبي
وفي شفتي...اللّهب
من أيّ غابٍ جئتِ
يا كلّ صلبان الغضب؟
بايعتُ أحزاني...
وصافحتُ التّشرّدَ والسّغب
.... حسبي بأنّي غاضبٌ
والنّارُ أوّلها غضب!

يلحظ أن هذا الغضب الذي يتحدث عنه محمود درويش لم يكن إلا في وسط النار التي يتحدث عنها، فلقد «كان غضب درويش في المرحلة الأولى في الستينيات تقريباً غضباً رومانسياً وطنياً ثورياً، ثم أصبح في المرحلة التالية في السبعينيات تقريباً غضباً ثورياً إنسانياً، وفي المرحلة الأخيرة أصبح غضباً ثورياً ووجودياً فلسفياً»[٣].

لقد تأجج الخطاب الثوري في شعر محمود درويش على مستوى الكلمة والشعور والموضوع، وهو خطاب قد يكون مخفياً في بعض مفاصله، إلا أنه سرعان ما ينطلق مدوياً، ذلك أن «شاعر الستينيات كان صاخباً وغاضباً ومتمرداً، ويود أن يجهر بتمرده هذا ويسحبه على جميع ميادين الحياة والفكر والسلوك والشعر جميعها»[٤]، ولذلك فإننا نجد أن خطاب درويش عاصف في هدوئه، ليتجلى بقيمة سؤال عن الهوية

(١) الجمالية عبر العصور، إيثان سوريو، تر: ميشال عاصي، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٨٢،ص١٩.
(٢) أوراق الزيتون، محمود درويش، المؤسسة الربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣، ص٨.
(٣) الشاعر الغاضب محمود درويش، أحمد الزعبي، عمان، ١٩٩٥، ص٧.
(٤) مدارات نقدية في إشكالية النقد والحداثة والإبداع، فاضل ثامر، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٨٧، ص٢٨٨.

الوطنية والمشروعية الإنسانية إذ يقول:(١)

لمن كُتبت هذه الأوراق؟
أيّ بريد ذاهبٍ يحملها
سدّت طريقُ البرّ والبحارِ والآفاق...
وأنتِ يا أمّاه
ووالدي وإخوتي والأهلُ والرّفاق...
لعلّكم أحياء
لعلكم أموات
لعلكم مثلي بلا عنوان
ما قيمةُ الإنسان
بلا وطنٍ
بلا علمٍ
ودونما عنوان

يلحظ إنها الأسئلة عن الحرية التي يلهج بها خطاب محمود درويش الشعري؛ لتتجلى تلك الأسئلة قصيدة أخرى يجعل منها العنوان لهويته والإجابة على أسئلته، لكنها ليست إجابات تخصه وحده، بل هي خطاب موجه إلى الأحرار في العالم، يقول:(٢)

سجّل
أنا عربي
ورقمُ بطاقتي خمسون ألفاً
.....
أنا اسمٌ بلا لقبِ
صبورٌ في بلادٍ كلّ ما فيها
يعيشُ بفورةِ الغضبِ

(١) أوراق الزيتون، ص٣٩.
(٢) أوراق الزيتون، ص٧١.

جذوري قبلَ ميلادِ الزّمانِ رست

وقبلَ تفتّح الحقبِ

جاء ديوان أوراق الزيتون محملاً بخطاب مباشر وصريح، متسلحاً بالكلمة كأداة للدفاع عن الكرامة الوطنية، و"آمن بضرورة خدمتها الناس والجماهير"[1]، حيث يقول:[2]

يا رفاقي الشّعراء

نحنُ في دنيا جديدةٍ

ماتَ ما فاتَ فمن يكتب قصيدةً

في زمانِ الرّيحِ والذّرة

يخلقُ أنبياءَ

قصائدنا بلا لونٍ

بلا طعمٍ بلا صوتٍ

إذا لم تحمل المصباحَ من بيتٍ إلى بيتِ

وإن لم يفهم البسطا معانيها

فأولى أن نذريها

ونخلدَ نحنُ للصّمتِ

تجد الشاعر محمود درويش في أوراق الزيتون يخاطب كل من حوله من الأسرة والأصدقاء والشعب والمحتلين والطبيعة، وهو مباشر وواضح في خطابه الشعري وأنه آلى على نفسه أن يحمل شعلة المقاومة، يقول:[3]

يا قارئي

لا ترجُ منّي الهمسَ

لا تَرجُ الطّرب

هذا عذابي..

ضربةٌ في الرّملِ طائشةٌ

(١) شعر المقاومة الفلسطينية، حسني محمود، مكتبة الأدب والثقافة الفلسطينية، الزرقاء، عمان، دت، ٢/ ١٠٢.

(٢) أوراق الزيتون، ص٥٤.

(٣) أوراق الزيتون، ص٧.

وأخرى في السّحب

نتلمس في خطاب درويش الشعري الكلمة والأحاسيس، فيبدو متحسراً متظلماً وساخراً، وفيه تجد القهر تارة، ويعلن إصراره على الحياة تارة أخرى، ويأتي كل ذلك وفق خطاب شعري بأسلوب ينزاح تجاه الانفعالات الفنية والدلالية معاً.

- ثانياً: المستوى الأسلوبي:

إن الحديث عن شعرية الخطاب الشعري في ديوان أوراق الزيتون يقود مباشرة إلى الحديث عن سيطرة المباشرة على المستوى الأسلوبي في الخطاب، «فالأسلوبية هي الجسر الذي يصل بين اللغة والنقد ويجمع بين الوصف والتقويم، وهي التي تدرس كيفية ما يقال مستخدمة الوصف التحليل في آن معاً»[1].

وإذا كان خطاب درويش في ديوانه موجهاً إلى كل ما حوله، فإنه في الآن ذاته يخص بخطابه الشعري إخوته المقهورين الذين يبكون على حالتهم بدمع من الدماء، متوجهاً إليهم ومبشراً بأن الصبر دليلهم وأن معاناتهم لا شك زائلة، يقول:[2]

يا داميَ العينين والكفّينِ
إنّ اللّيلَ زائل
لا غرفةُ التّقيفِ باقيةٌ
ولا زردُ السّلاسل
نيرونُ ماتَ ولم تمت روما...
بعينيها تقاتل
وحبوبُ سنبلةٍ تموتُ
ستملأُ الوادي سنابل...

إن الخطاب في ديوان الشاعر مليء بالغضب والثورة، ولكنه مليء أيضاً بالتفاؤل، فهم في خطابه يبشر إخوته بزوال الاحتلال، ويؤكد على أن «هذا الوطن المحتل لا بد من أن يعود إليه ويتحرر مهما طال الزمن»[3].

وتجده يعمد درويش أحياناً إلى توجيه خطابه على صورة رسالة مكتوبة يبين فيها ما يجيش في صدره من

(١) البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، ص١٢٩.
(٢) أوراق الزيتون، ص١٣.
(٣) الشاعر الغاضب محمود درويش، ص١٧٧ .

جهة ويبرز خطابه الشعري من جهة ثانية، يقول:[١]

تحيّةً .. وقبلة
وليسَ عندي ما أقولُ بعدُ
من أينَ أبتدي؟ وأين أنتهي؟
ودورة الزّمانِ دون حدّ
وكلّ ما في غربتي
زوّادة فيها رغيفٌ يابسٌ ووجد
ودفترٌ يحملُ عنّي بعضَ ما حملت
بصقتُ في صفحاتهِ ما ضاقَ بي من حقد

ويبدو الغرض من هذا الخطاب المتمثل في الرسالة هو الشكوى من الحرمان والجوع، إذ يقول:[٢]

هل عندكم رغيفٌ؟
يا إخوتي! ما قيمةُ الإنسان
إن نامَ كلّ ليلةٍ جوعان؟

ونجد أيضا ان درويش لا يقتصر في توجيه خطابه على الإنسان فقط، بل هو كعادته يشمل بخطابه كل الموجودات حوله، فيخاطب الطبيعة التي يجسد بينه وبينه علاقة خالدة، فيقول:[٣]

يا غابةَ الصّفصافِ هل ستذكرين
أنّ الذي رموهُ تحتَ ظلّكِ الحزين
كأيّ شيءٍ ميّتٍ – إنسانٌ؟

وهنا تبرز الغاية من الخطاب الشعري عند محمود درويش في ديوانه أوراق الزيتون، فهو يريد من خلال خطابه لكل مكونات الوجود حولاه، ولا سيما الأرض وما تحويها من الأشخاص والأمكنة والأشجار وغيرها أن يبرز عمق قضية التوحد بين الأرض والإنسان، وهذه القضية كما يرى الباحثون كان محور اهتمام محمود درويش في أشعاره طيلة فترة السبعينيات.[٤]

(١) أوراق الزيتون، ص٣٣.
(٢) أوراق الزيتون، ص٣٦ .
(٣) أوراق الزيتون، ص٣٩.
(٤) الشاعر الغاضب محمود درويش، ص١٧٣.

الخاتمة

إن البحث في شعرية الخطابة عبر ديوان أوراق الزيتون للشاعر محمود درويش؛ إذ نجد سيطرة النزعة الخطابية على جميع قصائد الديوان، وكانت لها غايات موضوعية وجمالية، وقد توصل الباحث إلى أهم النتائج وهي بحسب الآتي:

١- يلحظ الخطاب الشعري في ديوان أوراق الزيتون منسج مع طبيعة الرؤى التي أراد درويش أن يعرض لها، ومنسجمة مع الرؤية الشعرية عند محمود درويش.

٢- إن الشعور بالحسرة والألم ومحاولة رصد صور الفجائع التي تحدث في الأرض المحتلة جعلت الشاعر يقف منها موقف الغاضب الثائر فجاء خطابه الشعري خطاباً ثائراً.

٣- إن خطاب الاستغاثة الذي كان الشاعر يوجهه إلى الأشخاص والكائنات والطبيعة حمل شعرية مشاركة الوجود له الرفض والألم.

٤- كان أسلوب الخطابة في شعر درويش واضحاً، وقد وظفه على وفق أسلوب فني يخدم جماليات اللغة الشعرية وينبض بالمعاني الجديدة.

٤- كان الخطاب الشعري في أوراق الزيتون ذي بعد ثوري من جهة، ومأساوي عبر التحسر والألم لاستنباط الهمم من جهة ثانية، وكذلك تفاؤلي عبر التأكيد على أن المحتل؛ إذ لا شك زائل من جهة ثالثة، وبعد وطني وقومي عبر التأكيد على الهُوية الوطنية والتجذر في الأرض من قبل التاريخ.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١- اتجاهات الشعرية الحديثة الأصول والمقولات، يوسف إسكندر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨،

٢- الأسلوب والأسلوبية، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، ط٢، ١٩٨٢.

٣- أوراق الزيتون، محمود درويش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣.

٤- البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.

٥- بنية اللغة الشعرية في النقد اللغوي، بونوالة صحراوي، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان. ٢٠١٤.

٦ - تحليل الخطاب الأدبي دراسة تطبيقية، أبراهيم صحراوي، دار الآفاق، دت.

٧- تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٧.

٨- الجمالية عبر العصور، إيثان سوريو، تر: ميشال عاصي، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٨٢.
٩- الخطيئة والتكفير، عبد الله الغذامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤ ، ١٩٩٨.
١٠- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٤.
١١- الشاعر الغاضب محمود درويش، أحمد الزعبي، عمان، ١٩٩٥.
١٢- شعر المقاومة الفلسطينية، حسني محمود، مكتبة الأدب والثقافة الفلسطينية، الزرقاء، عمان، دت.
١٣- الشعرية، تزفيتان تودوروف، تر: رجاء بن سلامة وشكري مبخوت، دار توبقال، المغرب، ط ١، ١٩٩٧.
١٤- شعرية تودوروف، عثماني ميلود، منشورات عيون المقالات، الدار البيضاء، دط، دت،
١٥- الشعرية العربية، أدونيس، دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٨٩.
١٦- الشعرية الغربية الحديثة وإشكالية الموضوع، فتحي خليفي، الدار التونسية للكتاب، تونس، ٢٠١٢.
١٧- عصر البنيوية من ليفي ستراوس إلى فوكو، جابر عصفور دار الآفاق العربية، بغداد، ١٩٨٥.
١٨- في الشعرية، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، دط، دت.
١٩- القاموس المحيط، الفيروزابادي، محمد بن يعقوب، دار احياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠.
٢٠- قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، رشيد ابن مالك، دار الحكمة، فيفري، ٢٠٠٠.
٢١- قضايا الشعرية، رومان جاكبسون، تر: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال، ط١، ١٩٨٨.
٢٢- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، دت.
٢٣- مدارات نقدية في إشكالية النقد والحداثة والإبداع، فاضل ثامر، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٨٧.
٢٤- المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، مكتبة التراث القاهرة، ط٣، دت.
٢٥- المصطلح النقدي، عبد السلام المسدي، مؤسسات عبد الكريم عبد الله للنشر، تونس، ط١، ١٩٩٤ .
٢٦- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش، المكتبة الجامعية، الدار البيضاء، ١٩٨٤،
٢٧- مفاهيم الشعرية، حسن ناظم، المركز الثقافي العربي، بيروت. ط١، ١٩٩٤.
٢٨- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩.
٢٩- النظرية الشعرية، جون كوهين، تر: أحمد درويش، دار غريب، القاهرة، ط١، ١٩٩٦.

Sources and References

•The Holy Quran

1- Trends in Modern Poetics: Origins and Categories، Youssef Iskandar، Dar Al-Kotob Al-Ilmiyyah، Beirut، 2nd ed.، 2008،

2- Style and Stylistics، Abdel Salam Al-Masdi، Arab House for Books، Tunis، 2nd ed.، 1982،

3- Olive Leaves، Mahmoud Darwish، Arab Institution for Studies and Publishing، Beirut، 1973،

4- Rhetoric and Stylistics، Muhammad Abdul Muttalib، Egyptian General Book Authority، Cairo، 1984،

5- The Structure of Poetic Language in Linguistic Criticism، Bounouala Sahrawi، Ghaida Publishing and Distribution House، Amman، 2014،

6- Analysis of Literary Discourse: An Applied Study، Ibrahim Sahrawi، Dar Al-Afaq، dt،

7- Analysis of Novelistic Discourse، Saeed Yaqtin، Arab Cultural Center، Beirut، 1997،

8- Aesthetics Through the Ages، Ethan Surio، trans. Michel Assi، Awidat Publications، Beirut، 1982،

9- Sin and Atonement، Abdullah Al-Ghadami، Egyptian General Book Authority، 4th ed.، 1998،

10- Evidence of Miracles، Abdul Qaher Al-Jurjani، trans. Muhammad Mahmoud Shaker، Al-Khanji Library، Cairo، 5th ed.، 2004،

11- The Angry Poet Mahmoud Darwish، Ahmad Al-Zoubi، Amman، 1995،

12- Poetry of the Palestinian Resistance، Hosni Mahmoud، Palestinian Literature and Culture Library، Zarqa، Amman، dt،.

13- Poetry، Tzvetan Todorov، trans. Raja Bin Salama and Shukri Mabkhout، Dar Toubkal، Morocco، 1st ed.، 1997،

14- Poetry of Todorov، Othmani Miloud، Uyun Al-Maqalat Publications، Casablanca، dt.، dt،.

15- Arabic Poetry، Adonis، Dar Al-Adab، Beirut، 2nd ed.، 1989،

16- Modern Western Poetry and the Problem of the Subject، Fathi Khalifi، Tunisian House of Books، Tunis، 2012،

17- The Age of Structuralism from Levi-Strauss to Foucault، Jaber Asfour، Dar Al-Afaq Al-Arabiya، Baghdad، 1985،

18- In Poetics، Kamal Abu Deeb، Arab Research Foundation، Beirut، 1st ed.، dt،.

19- Al-Qamoos Al-Muhit، Al-Fayrouzabadi، Muhammad bin Yaqub، Dar Ihya Al-Turath Al-Arabi، Beirut، 2000،

20- Dictionary of Terms for Semiotic Analysis of Texts، Rashid bin Malik، Dar Al-Hikma، February، 2000،

21- Issues of Poetics، Roman Jakobson، trans. Muhammad Al-Wali and Mubarak Hanun، Dar Toubkal، 1st ed.، 1988،

22- Lisan Al-Arab، Ibn Manzur، Dar Sadir، Beirut، dt.

23- Critical Orbits in the Problem of Criticism، Modernity and Creativity، Fadhel Thamer، Ministry of Culture، Baghdad، 1987،

24- Al-Muzhir in the Sciences of Language، Jalal al-Din al-Suyuti، Heritage Library، Cairo، 3rd ed.، no date،

25- Critical Terminology، Abdul Salam al-Masdi، Abdul Karim Abdullah Publishing Institutions، Tunis، 1st ed.، 1994،

26- Dictionary of Contemporary Literary Terms، Saeed Alloush، University Library، Casablanca، 1984،

27- Concepts of Poetics، Hassan Nazim، Arab Cultural Center، Beirut. 1st ed.، 1994،

28- Language Standards، Ahmed bin Faris، trans. Abdul Salam Muhammad Harun، Dar al-Fikr، 1979،

29- Poetic Theory، John Cohen، trans. Ahmed Darwish، Dar Gharib، Cairo، 1st ed.، 1996،